

أبرز التيمات في رواية التسعينيات الجزائرية

أ/ غنية بوحررة

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الحاج لخضر - باتنة -

الملخص:

ظهرت رواية التسعينيات الجزائرية في مرحلة متأزمة من تاريخ الجزائر عُرِفَتْ بالأزمة، وجد فيها الكتاب مناخا مناسباً ومادة دسمة لأعمالهم الإبداعية بخاصة الروائية منها، باعتبارها أكثر ملامسة وارتباطاً بالواقع، وأكثر قدرة على نقل المأساة الوطنية في قالب في إبداع يهيمن عليه البعد الأيديولوجي، بلغة تتراوح بين الشعرية والخطابية، فجاءت بداية التسعينيات إيذاناً لبداية مرحلة جديدة في الكتابة الروائية ميزتها عن رواية السبعينيات والثمانينيات، سواء على مستوى المضمون أو الشكل، إذ كشفت روايات هذه الفترة عن التوجهات الأيديولوجية السائدة التي نتج عنها صراع حاد في مستوى الأفكار بين فئات مختلفة وهذا ما ستحاول هذه الدراسة الكشف عنه من خلال أبرز التيمات التي ميزت رواية التسعينيات والمتمثلة في:

تيمة المثقف ومعاناته في رواية التسعينيات الجزائرية ، الأيديولوجيا وتحليلاتها في رواية التسعينيات، تيمة العنف وصوره في رواية التسعينيات

إذا كانت رواية الثمانينيات في الجزائر هي امتداد لرواية السبعينيات التي ظلت غارقة في الرؤية التي أنتجها الأدباء المؤسسون، كما أنها لم تستطع أن تنتج نصوصاً تميزها عن غيرها وتعلن بذلك قطيعتها مع رواية السبعينيات. فإن هذه القطيعة سواء من حيث الرؤى أو التيمات، لم تحدث إلا مع جيل جديد من الروائيين الشباب الذين نسجوا نصوصاً من رحم الأزمة الجزائرية، نصوص ذات

حساسية أدبية ومعرفية مغايرة، كانت بمثابة ردة فعل لتلك التحولات العميقة التي عرفتھا الجزائر على جميع الأصعدة ابتداء من أحداث أكتوبر 1988. والتي دفعت بالرواية الجزائرية إلى التخلص من وثن الثورة الذي حكم الذهن الإبداعي منذ الاستقلال.

إن الرواية الجزائرية خلال هذه الفترة لم تكن إلا صدى للأحداث التي هزت البلاد آنئذ، وعبرت عن الراهن والحيني، وقامت بتعرية المجتمع والكشف عن حقيقة المتسببين في تشويه صورة البلاد والتنديد بالواقع وإدانة الأعمال الدموية. أما إذا أردنا الغوص في أعماق الرواية التسعينية والكشف عن أهم التيمات التي فرضتها الأزمة الوطنية، وأهبت مشاعر الكتاب الروائيين الذين فرضوا حضورهم بقوة في الكتابة الروائية. نجد بعض الروايات تتحرك تحت مظلة الخطاب الرسمي الأيديولوجي إما تصريحاً أو تعريضاً، بخاصة ذلك الصراع الأيديولوجي القائم بين السلطة السياسية والحركة الإسلامية، ومن ثمة صراع المثقف مع هاتين الأيديولوجيتين، هذا المثقف الذي وجد نفسه سجيناً وأسيراً بين نارين نار السلطة وجحيم الإرهاب. هي ضريبة يدفعها المثقف نتيجة لأيديولوجيته الثورية وتحديه، ورغبته في كسر حاجز الظلم وطمس معالم القهر والعدوان، مما يشكل موضوعاً رئيساً متواتر الحضور ومكثف الدلالة في المتن التسعيني.

ومن أبرز الموضوعات التي ميزت الأعمال الروائية التسعينية، موضوع المثقف والأيديولوجيا، والعنف والفجعة وأبجديات التقتيل والتنكيل والسجن والتعذيب، سواء كان هذا العنف من طرف الإسلاميين أو السلطة الحاكمة. كليهما عملاً جاهداً في إبراز تسلطهما والتفنن في أنواع التعذيب والتقتيل والتربص بالمثقف والكيد له.

كل هذه القضايا اهتمت بها رواية التسعينيات وحاولت بذلك إنتاج وصياغة الواقع بأسلوب فني جمالي، وهي بذلك تعري المجتمع وتصور العنف الموجه ضد

المثقف بطرق فنية وإبداعية تختلف من كاتب لآخر، لذلك حاولنا الجمع بين روايات جيل الشباب ذوي النزعة التشاؤمية الذين تميزت بهم هذه الفترة، وجيل السبعينيات والثمانينيات الذين جمعوا في رواياتهم بين الخطاب الأيديولوجي وجماليات الكتابة الروائية. وأول هذه الموضوعات التي سنلقي عليها الضوء بالشرح والتحليل صورة المثقف وحضوره في رواية التسعينيات.

1. المثقف ومعاناته في رواية التسعينيات:

لم تعد الرواية التسعينية تهتم بموضوع الثورة التحريرية والمشاكل الاجتماعية التي ميزت أعمال كتاب السبعينيات، بقدر ما اهتمت بوصف الصراع الأيديولوجي القائم بين الشخصيات المثقفة والاتجاهات المختلفة، فحملت في طياتها أثار القلق والخوف والتوتر والرغبة في الانتقام، والصراع من أجل تحقيق غايات وأهداف تصبوا إليها شخصيات وأبطال هذه الروايات. إذ عملت الرواية على تجسيد أحداث المأساة الوطنية، ومحنة ومعاناة المثقف الجزائري في ظل تلك الأحداث الشائكة التي نتج عنها صراع بين أطراف مختلفة، ضاع المثقف وسطها، وفقد دوره الحقيقي في النهوض والإسهام الفاعل في التغيير وبناء مجتمع راق. إذ إن الدور الحقيقي الذي يقوم به المثقف «لا يظهر في الأوضاع الهادئة أو العادية. بل يتجلى في خضم تمزق المجتمعات، والمثقف هو الشاهد على تمزق المجتمعات وبالتالي هو الذي يعيش ويستوعب في داخله تمزق مجتمعه»¹، وعليه أن يؤكد هويته ويثبت وظيفته الاجتماعية، وأن يعمل على تغيير نظام مجتمعه إلى الأحسن والتأثير على السلطة بقراراته وأفكاره.

إن معظم الروايات في هذه الفترة تتعرض لوضعية المثقف ومعاناته واضطهاده. فلا يكاد يخلو نص من حضور صورة المثقف التي تتقمص في كثير من الأحيان دور البطل إذ كشف لنا الروائيون عن الشخصيات المثقفة من خلال انطباعاتهم عن أحداث أكتوبر وتقييمهم لأبعادها من الناحية السياسية والاجتماعية، ليصلوا إلى أن المشاكل التي تعاني منها هذه الشخصيات متشابكة

متشابهة. يجمعهم هم أكبر يكمن في تمزق وطنهم. لذلك فلقد كانت أزمة المثقف الحقيقية هي صدامه الدائم مع السلطة والإرهاب السياسيين

إن الشخصيات المثقفة التي تجلت في الروايات هي شخصيات تراوحت بين السلبية والثورية والإشكالية، إذ بدا بعضها في البداية شخصيات ثورية ناثرة مناهضة ومعارضة، إلا أنها تعجز في نهاية المطاف عن تخطي الصعاب التي تعيق تقدمها وتعيق في الوقت ذاته سير أحداث الرواية نحو محور البناء، بل ساعدت هذه الشخصيات على الهدم أكثر منها البناء، والتراجع والاستسلام بدل الإصرار والتضحية في كثير من المشاهد الروائية. وبدل أن يعمل المثقف على تنمية إرادته وعزمته وتعزيز ثقته بنفسه للوقوف ضد عوامل القهر والظلم والاستبداد، نجده يتوقع على نفسه ويختبئ في منزله أو يفر إلى الجبل لأنه يرى فيه المكان المناسب لتحقيق ذاته وإثبات كيانه.

فبعض المثقفين كشخصية المعلم "كريم" والطالب الجامعي في رواية "الورم" لمحمد ساري، والصحفي الطاهر سمين في رواية "بخور السراب" لبشير مفتي تعاطفوا مع عناصر الحركة الإسلامية ورأوا فيهم «منصرين للحرية حاملين مشعل الإنقاذ»² غير أنهم كانوا يحملون أوهاما وسرابا تلاشت بمجرد اتضاح رؤاهم وانضمامهم إليهم من أجل البحث عن الحرية المنشودة والعدالة المفقودة، في مجتمع اختلط فيه الحابل بالنابل والحق بالباطل. فإذا بهذه الشخصيات المثقفة تصعق بواقع هذه الجبهة، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء. ليجد القارئ نفسه هو الآخر يتساءل عن حقيقة المثقف الذي كان كل همه حمل هموم الناس ونشر الحق والعدالة والوقوف إلى جانب المحرومين والانتصار لهم.

المعلم كريم الذي أخذ عنوة من بيته ليلا وسجن بأقاصي الصحراء، التقى بجماعة من السلفيين في السجن واستمع إلى نقاشاتهم الحادة ولاحظ تعصبهم

لآرائهم الفقهية التي لم يقتنع بها. ولكن على الرغم من ذلك لم يستطع أن يبدي معارضته أو عدم اقتناعه بالأفكار التي سادت الحلقات، فهو يعلم أن المثقفين الذين اعتقلوا وهُجِّروا إلى أقاصي الدنيا تحت الشمس اللاهبة سجنوا ظلماً لذلك أعطى الحق للإسلاميين الذين يحقدون على الحكام .

إن كريم هو الآخر يحقد على الحكام والسلطة، ولكن بدل أن يدفعه ذلك إلى الصمود والوقوف ضد السلطة كما هي عادة المثقف الحقيقي، نجده يتخاذل ويقف إلى جانب الجبهة المعارضة والانضمام إلى الجماعات الإسلامية، بعد خروجه من السجن واللجوء إلى الجبل من أجل الفرار من ضغوطات السلطة، وإجباره كل يوم للحضور إلى قسم الشرطة لتسجيل حضوره تحت صراخ رجال الأمن وسبه وشتمه والخط من قدره ورجولته . فكريم لم يعد يحتمل ذلك كل صباح وتحت أشعة الشمس التي يحملها على رأسه من أجل سماع كلام يزيد الجسم إرهاقا والعقل جنونا، بخاصة بعد اتهامه بالمشاركة في حرق دار البلدية والهجوم على مقر الدرك. والأكثر من ذلك فقد فقدته لوظيفته وانسداد أفق الحياة لديه. لكن ما أقدم عليه كريم من تخليه عن قيمه ومبادئه إنما يدل على ضعف شخصيته وسلبيته. فشخصية المعلم كريم هي نموذج للمثقف السليبي العاجز الخائن القاتل الذي لم يستطع أن يحافظ على مبادئه وأخلاقه وأيديولوجيته، على الرغم من وعيه بما يدور حوله وعلى الرغم من موقفه الجاد من القضايا السياسية والدينية والاجتماعية المطروحة، إلا أنه في لحظة ضعف وقله تفكير وتدبير وجد نفسه مقحما في مسار غير مساره، ليتحول إلى مجرم حقير بعدما كان ذلك «المعلم المبجل الذي يلجأ إليه أولياء التلاميذ للمشورة والمساعدة»³. وهكذا كان المعلم كريم واحدا من «الكثيرين الذين حولتهم السلطة إلى سلبيين خائنين وهارين»⁴

إلى جانب شخصية كريم كنموذج للمثقف السليبي هناك نموذج آخر يمثل المثقف اللامتمي⁵ الذي يمثله الكاتب السارد في رواية بخور السراب ومسعود الأستاذ الجامعي في رواية فتاوى زمن الموت لإبراهيم سعدي .

أما عن شخصية المثقف البطل في رواية بخور السراب فقد كان يعيش اغتراباً داخل وطنه وبين أهله، ينبذ الكل حتى والده، وعلاقته مع الغير سطحية لا تربطه في البداية معهم إلا علاقة زمالة لا غير. يرفض الخوض في المسائل السياسية أو المشاركة في أي حزب، ولا يرغب حتى إبداء رأيه فيما يحدث حوله، وقد أعلن حياده ولا انتماءه. لذلك كان السجن النفسي الذي يعيشه أبلغ من السجن المادي. فقد عمد الكاتب إلى كشف اغترابه وإحساسه بهشاشة الوجود باللجوء إلى الحوار مع أحد أصدقائه صالح كبير الذي حاول إخراجهم مما هو فيه. "فاجأني مرة صالح كبير وهو يلومني على هذه العزلة التي أفرضها على نفسي أقول له بصوت باح. لست مؤهلاً لهذا التغيير .

فيسألني من جديد.

هل تخيفك السياسة إلى هذا الحد ؟

فأرد عليه دون تفكير

هل تسميها سياسة؟ " ⁶

إن الراوي لا يرغب في مسايرة الأحداث ولا الاقتناع بما يدور حوله من صراعات وتناقضات، ولا النضال من أجل تغيير مجتمعه الغارق في كومة من الفساد، أو المطالبة بحريته وحقوقه. فهو لم يعد يثق في أحد ولا يؤمن بهذه التوجهات، ولم يستطع أن «يجسد مثله الأعلى في الإصلاح ويحقق غايته المنشودة بسبب انعدام التفاعل بينه وبين مجتمعه الذي ينتمي إليه » ⁷.

أما عن سبب هذه العزلة والاغتراب والانكفاء على الذات فيعود إلى عجز المثقف عن القيام بالدور المنوط والمهمة الملقاة على عاتقه، وعدم القدرة على المواجهة والسيطرة على الأوضاع، وإخراج مجتمعه من براثن الظلم والفساد والاستبداد، كل ذلك جعله يحس بالعجز وعدم القدرة على المواصله، فأعلن عن عجزه ويأسه بالتزام سجنه والانكفاء على نفسه واجترار همومه. وحينما قرر الخروج من عزلته

ولا انتمائه دخل في لا انتماء آخر أفضع مما كان عليه واللجوء إلى الرذيلة والجنس والشرب واللهو. كل ذلك من أجل الهروب من الواقع وعدم التفكير فيه. فكانت هذه الشخصية التي عالجها الكاتب ضعيفة سلبية رفضت تحمل أعباء الحياة وأبت رفع شعار النضال والتغيير، والبحث عن الحرية والديمقراطية.

مسعود في فتاوى زمن الموت هو الآخر كان يرفض الاندماج في المجتمع أو التعامل مع الآخرين. كان لا يفضي أسرارهِ إلا لـ"لوح" السارد وعنتر صديقه وقد خاب ظنه في أقربهما إليه، -عنتر- الذي قتله نتيجة لأفكاره التي جنت عليه وأيديولوجيته التي يؤمن بها في حرية اعتناقه للديانة التي تناسب تفكيره وإلحاده وعدم إيمانه بوجود الله .

قضية الإيمان والإلحاد التي كانت تدور في خلد الأستاذ الجامعي مسعود هي في الحقيقة سبب عزلته وانطوائه، والسبب أيضا في خوفه وقلقه وإحساسه بالعزلة والوحدة والتوتر الدائم، لضعف اعتقاده على الرغم من تمسكه بأيديولوجيته التي توحى بإلحاده وعدم إيمانه.

«لقد أحسست بنفسي وحيدا وغريبا، لم أعد أعلم من أنا، من أين جئت ولم العيش كنت أعيش بينكم كالغريب، وكنت أحس بنفسي أخدعكم وأخونكم، لقد كنت تائها ضائعا، لم يعد لي دار ولا أهل ولا صديق ...»⁸

مسعود صاحب العلم والمعرفة الفكرية والميتافيزيقية، في الحقيقة يعيش مأساة فكرية وفلسفية لضيق أفقه وحصر تفكيره في مجال محدود لم يزد إلا وبالا. فبمجرد أن صرح بإلحاده حتى حكم عليه بالكفر ووجوب قتله بعدما «انتهى ذلك النقاش الذي دام أزيد من عام نهاية سيئة، ليس لأن موسى فقد إيمانه بل لأنه أفضى إلى تكفير مسعود وإشاعة أمره بين الملتحين»⁹

شخصية المثقف التي صورها إبراهيم سعدي في روايته على الرغم من شهادته العليا التي يحملها والمنصب العلمي الذي يشغله، فإنه لم يتمكن من أن يكون مثقفا

حقيقيا يحمل همومه وهموم غيره، ويحاول أن يخرج بلاده من المأزق الذي تعيشه وشغل نفسه بأمور ميتافيزيقية لا أساس لها جعلته يرفض قيمه ودينه وأخلاقه ...

«إن اغتراب هذه الشخصيات هو نوع من الاحتجاج على سيادة الظلم في المجتمع، فهذه الشخصيات المثقفة غير راضية بمجتمعها وواقعها ورافضة لثقافة المجتمع وأخلاقه وقيمه ومؤسساته، إنها شخصيات أعلنت قطيعتها مع المجتمع واختارت العزلة أو العيش في القبو بعيدا عن الناس»¹⁰.

لقد طرحت الرواية الجزائرية التسعينية إلى جانب المثقف السليبي واللامتمي نمطين من الشخصيات الثورية: أولاهما تتميز بالصمود والتحدي والمواجهة، وهي شخصيات مثقفة إيجابية، وثانيهما تتميز بالاستسلام والفشل في تحقيق الأهداف وهو المثقف الإشكالي.

من الروايات التي عاجلت المثقف الثوري الإيجابي رواية بخور السراب في شخصية الصحفي خالد رضوان، ومريم خريجة معهد الفنون في سيدة المقام .

إن شخصية خالد رضوان هي نموذج للمثقف الثوري الحق الذي لم يستسلم ولم يتراجع ولم يفشل، ولم يلجأ إلى الفرار والهروب على الرغم من معاناة الصحفي الدائمة من اضطهاد السلطة وقمعها أو التهديد بالقتل من طرف الجماعات المسلحة، ولكن، على الرغم من ذلك فإن خالد لم يستكن للهزيمة والاستسلام على الرغم من سجنه المتكرر، بل أبى إلا أن يتجرع من الكأس التي شرب منها شعبه والتصدي لهم (السلطة والجماعات الإسلامية) بمواصلة نضاله وإظهار الحقائق وكشف المستور ونشر الوعي والثقافة إذ «لاتزال صورته في تلك الفترات مرتبطة بحبه للثقافة ومساعدة المثقفين في خلق مشهد ثقافي يسمح للمواهب الإبداعية كي تتبلور وتنفجر قرائحها»¹¹.

لقد عملت الرواية على كشف وعي الشخصيات الروائية والمثقفة بضرورة التغيير والدعوة إلى حرية الرأي والفكر، فقد عمد خالد رضوان إلى نشر أفكاره

الأيدولوجية من خلال محاضراته وخطبه التي كان يلقيها وسط الطلبة والتي كانت سببا في سجنه واضطهاده، فلم يزد ذلك إلا إصرارا وعزيمة، بل كان يعود كل مرة بروح عالية وهمة لامثيل لها. فبعد أن اختفى لمدة شهر « عاد للظهور من جديد، ولم يكن التعب أو الهزيمة ظاهرة عليه، بل كان كمن يستعيد بعد حادثة الاعتقال كل قواه الروحية وخطب من جديد »^{1 2} وواصل نضاله وإلقاء محاضراته لكشف التلاعبات التي كانت تحاك ضد البلد والشعب. فهو مثقف حاضر في مجتمعه ومتفاعل مع قضاياها، محافظ على قيمه ومبادئه وأفكاره، التي تحظى باحترام العامة .

أما مريم في رواية سيدة المقام فقد ماتت بعد أن حققت جزءاً من أمنيتها وأحلامها في القيام ببلي البربرية وشهرزاد على موسيقى رمسكي كورساكوف. وبالنسبة لمعهد الفنون فلم تفلح في إقناع رئيس البلدية ورجال الشرطة بتركه كما هو. بل أغلقوه ثم حولوه إلى ملجأ لسكان القصبة باعتباره مكانا لا ينتج إلا الفسق والتغريب حسب رأي حراس النوايا، ولكن على الرغم من ذلك ظلت متمسكة بموقفها إلى أن ماتت.

وعن المثقف الإشكالي فقد مثله الكاتب/ السارد أستاذ الفن الكلاسيكي في الرواية نفسها ومرزاق بقطاش في دم الغزال، إذ تمرد كل منهما على الواقع ورفضه وأعلنا بغضهما للسلطة وللجماعات الإسلامية التي اتخذت الدين قناعا لتحقيق غاياتها السياسية. لكن رفضهما وعدم قناعتهم بما يجري في الواقع وفي الوطن من قمع لحرية الرأي والفكر والقتل والتخريب، لم يكن كافيا لتغيير الأوضاع إلى الأفضل، بل عاش كل منهما اضطرابا مأساويا وفشلا في تحقيق ما يصبوان إليه. وعجز الراوي "مرزاق بقطاش" في نشر قيمه الأصيلة ومبادئه السامية في مجتمع يقوم على الزيف لا تهمه هذه القيم، فقد تعرض لمحاولة اغتيال لأنه فكر يوما في الإسهام بإخراج بلاده من الفساد والاستبداد الذي تعيشه، إذ يتساءل عن سبب محاولة إسكاته في حين «يظل اللصوص والنسل والقتلة وكل الذين نهبو

البلاد واستباحوا الأعراض وأهلكوا الحرث والنسل متنعمين آمنين، مستلذين بما طاب من المحرمات وما كدسوه من أموال متتهبة بينما نموت نحن الذين نريد أن نبنى الوطن، أن نظيف شيئا إلى الإنسان في هذه الحياة؟»¹³

مرزاق بقطاش الكاتب / السارد والشخصية الروائية المثقفة على الرغم مما حدث له فقد تميزت شخصيته بإرادة قوية للتمائل للشفاء، ومن ثمة واصل استمرار كفاحه ونضاله وثورته، باللجوء إلى الكتابة الروائية وإعلان تحديه. فهو وإن فشل في التصدي لهذه الأزمة وهذه المشاكل بمشاركته الفعلية، لم يتوان لحظة في أن يكتب رواية يفرغ فيها جميع مكبوتاته بتناول تيمة الموت موضوعا لروايته باعتبارها التيمة التي شاعت وانتشرت، وكادت أن تخطفه وتنال منه بعدما تمكنت من الرئيس الراحل محمد بوضياف. لذلك قرر أن « يعلن عن اختياره للكتابة ملجأ وسلاحا لمقاومة العنف وأشكاله »¹⁴.

موضوع الكتابة الذي اختاره الكاتب/ السارد أيضا كأحد موضوعاته البارزة في براري الموت -دم الغزال- هو ما تسميه باتريشيا يونغ (wangh patritia) الميتاروائي (mitafiction) وهو عندها « بنية نص تدخل في علاقة مع النص »¹⁵ أي أن يكون النص أو موضوع الرواية هو الرواية في حد ذاتها، فالميتاروائي أو الخطاب الواصف عند جيرار جينيت « سرد واصل mitaricit أي مروي في الحكاية أو حديث الرواية عن الرواية أو الحكاية عن الحكاية »¹⁶. فالنص الروائي بذلك يتحدث عن إشكالية الكتابة ونقدها واستحضار الشخصيات الروائية في الأعمال الروائية السابقة واستنطاقها، والحديث عن سبب لجوئها إلى الكتابة، وكذا « تضمين مواقف الروائي الخاصة من قضايا الكتابة والقراءة، بحثا عن أفاق جديدة تستطيع أن تستوعب وبطرائق متقدمة تلك التحولات العميقة التي تعيشها الثقافة العربية عامة والرواية الجديدة على وجه التحديد »¹⁷ كما هو الحال عند الروائي بقطاش في رايته دم الغزال حينما تحدث

عن تجربته الروائية وانتقد الطريقة التقليدية في الكتابة وتجاوز الشكل القديم والقواعد التي تُفرض على الكاتب، لذلك فهو يكتب رواية يعترف أنه أول مرة يكتبها دون أن يحول الخوف والموت بينه وبين قلمه، وبمجرد أن يكتب « كلمة الدم على الورق ينبغي أن تكون كافية لكي تشكل فنا قائما بذاته »^{8 1} ذلك ما جعله يرفض اللجوء إلى وضع تصميم لما يريد كتابته فيقول: « البعض يقول إن الرواية بداية وعقدة ونهاية والبعض الآخر يزعم أنه من الواجب أن تكتب الرواية بهذه الطريقة أو تلك وأن تحترم هذه المعايير أو تلك... ها أنذا أضرب بهذه المعايير عرض الحائط... أنا أكتب روايتي هذه حسب مزاجي حسب تجربتي. الروائية تجربة حياتية عميقة وليست تنظيرا يضعه هذا أو ذاك »^{9 1}.

يعد مرزاق بقطاش من الروائيين المتحررين من قيود الوسائل الفنية، ولعل الذي دفعه للكتابة بهذه الطريقة راجع إلى الواقع المرير الذي عاشه، بخاصة بعد حوادث أكتوبر 1988 ومحاولة اغتياله، لذلك قرر أن يكتب رواية جديدة دون التقيد بمعايير وتقنيات الكتابة الروائية وموقفه هذا إنما « يمثل أحد أشكال المعاناة التي تتاب الكاتب الحداثي لحظة الإبداع، فعليه أن يكتب نصا مقنعا ومختلفا ومتحررا من ضوابط النص السردى التقليدي الذي حددت ملامحه الشخصية الروائية »²⁰.

إذا كان هاجس الكتابة بات يؤرق بقطاش في روايته، واعتبرها تحديًا للواقع بعدما فشل كبطل مثقف في تحقيق الأمن والاستقرار والتأثير على السلطة وتغيير مسار الحياة إلى الأفضل، فإن بشير مفتي هو الآخر لجأ في رواياته إلى الميتاروائي، بخاصة المراسيم والجناز باعباره عالج أزمة ومعاناة المثقف ومن ثمة لجوء هذا المثقف إلى الكتابة الروائية. فباتت الكتابة الهاجس الذي يؤرق شخصياته.

في رواية بخور السراب قرر البطل السارد كتابة رواية للخروج من مأزقه ومن وحدته وعزلته ولتكسير حاجز الصمت والخضوع، على الرغم من أنه يعلم أن الكتابة لم تعد «إلا صياغة لعالم منهار تنهار فيه الذوات تحت وقع المآثم المتكاثرة

«^{1 2} أراد أن يكتب شيئاً لكنه يعلم أن الكتابة عاجزة عن التغيير ولا يلجأ إليها الكاتب إلا للهروب من واقعه والتخلص من أزمته، بعكس صديقه حداد الذي كان مولعاً بكتابة الروايات على الرغم من صراعاته الدائمة ومشاكله الاجتماعية المتواصلة، وهو من شجعه على الكتابة، وقد بعث له برسالة قبل اغتياله يحدثه فيها عن روايته الأخيرة بعنوان "بُخور السراب" بعدما استأذن منه أن يكون هو بطل روايته.

واسيني الأعرج هو الآخر لم تكن الكتابة بالنسبة إليه وسيلة للتخلص من أزمته ومعاناته كما عند مرزاق بقطاش. بل إن هذه الأزمة هي التي دفعته إلى التخلي عن فصوله الإحدى عشرة في روايته. وباعتباره نموذجاً للمثقف الإشكالي لم يستطع الاستمرار والمقاومة وإنما أحس بانغلاق جميع الأبواب في وجهه بخاصة بعد عودته من الخارج وتفاجئه بواقع بلاده ثم وفاة صديقه مريم. كل ذلك وأمام هذه التغيرات وأيضاً القهر والتعسف السائد لم يستطع الصمود طويلاً بل سقط منهاراً متخلصاً من هويته وأوراقه، ورمى بمخطوطه والنص الروائي الذي لم تنته فصوله بعد. وقرر الانتحار كآخر حل يلجأ إليه المثقف الإشكالي بعد استسلامه ورفض هويته و وطنيته وانتماءه ومجتمعه وكل ما كان سبباً في وضع حد لحياته، فتنتهي مقابل ذلك حركة السرد باغتيال الشخصيات الروائية المثقفة إما جسدياً أو معنوياً كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك.

إن رواية التسعينيات عامة والروايات التي اخترناها محلاً للدراسة بخاصة لم تخل واحدة منها من عرض حال المثقف ومأساته. وتعرضه لشتى أنواع العنف والقهر من شتى الاتجاهات والإيديولوجيات، مما جعلها أكثر واقعية وأكثر التصاقاً بالواقع، والذي يعاب على بعض هذه النصوص التسجيلية والتقريبية الفجة، ولكن ما عسى الكاتب أن يفعل أمام أحداث مهولة ووقائع مروعة، أمام بطون تبقر ورؤوس تقطع، وأمّهات ثكلى وأطفال يتامى ومثقف ضاعت حقوقه

واغتيلت أفكاره وكبلت حريته. هل كان عليه أن يجري وراء الأخيلة والصور الشعرية ليجعل من نصه فسيفساء من عوالم التخيل؟ أم يكتفي بكتابة الدماء والدموع، وطرح الأسئلة المحيرة والمقلقة. وهل سيكون النص أشد وقعا على نفس القارئ، وأكثر عجائية وغرابة من المشاهد المؤلمة التي عانى الكاتب الكثير من أجل تسجيلها وتشكيلها وتوزيع أحداثها على صفحات روايته؟.

2. تجليات الأيديولوجيا في رواية التسعينيات:

من الواضح أن الروايات التي أنتجتها الأزمة الجزائرية تمثل كتابة جديدة أفرزها الواقع المأساوي، عملت على تعرية الواقع وكشف المؤامرة التي تحاك ضد الوطن بمفردات مليئة بالدمار والخراب، والقتل والموت، وكذا الكشف عن العنف الأيديولوجي الذي رافق فترة الأزمة، وسلبات الأيديولوجيات السائدة التي تجتهد كل منها لتبرئة نفسها ومحاولة السلطة استئصال الإسلاميين وقطع دابرهم، في حين يعمل الإسلاميون على تكفير النظام وإصاق تهم فساد النظام بهم، و يطلقون أحكامهم وعقوباتهم التي لم يسلم منها أحد، ولم يكن هذا إلا صراع أيديولوجي بين الاتجاهين يحاول كل منهما تبرير موقفه لمواصلة دربه، والتخفي وراء خدمة المصالح العامة من أجل تحقيق مصالح ذاتية وفردية. فكلاهما يمثل الأيديولوجية البراغماتية النفعية التي تعمل على تأويل الوقائع والأحداث بطريقة تظهر على أنها على حق وصواب وغيرها هو المخطئ الذي يستوجب العقاب.

إن الأيديولوجية الإسلامية التي ميزت الرواية الجزائرية وصراعها مع السلطة عملت على بث أفكارها ونشرها بين الناس، فلقيت ترحيبا وقبولا في أوساط الشعب إذ «كان دعاة هذه الجماعة يركزون على الجانب الديني البحت، داعين إلى الابتعاد عن السلطة، وإلى عدم الاهتمام بأمورها... وقد وجدوا آذانا صاغية خصوصا لدى الشبان العاطلين عن العمل. ولدى أبناء الفقراء والحيارى والقلقين والمهمشين والخائين»^{2 2}.

إن الأفكار التي تحاول الجماعة الإسلامية بثها بين أفراد المجتمع من خلال ما ذكره الكاتب/ السارد، ماهي إلا أفكار الفئة المسيطرة ، إذ استطاعت هذه الفئة فرض أفكارها وأيديولوجيتها على باقي أفراد المجتمع من شبان عاطلين وفقراء ومهمشين وخائبين... وغيرهم ممن ذكرهم إبراهيم سعدي، هؤلاء الذين يمثلون الطوباوية والفئة المستضعفة الخاضعة لأيديولوجيا الجماعات المسيطرة التي تحاول فرض تصوراتها وتعمل على إقناعهم بضرورة تبني أفكارها، لكونهم يدافعون عنهم، ويرغبون في إقامة دولة إسلامية، أساسها الدين الذي يستخدمونه كقناع يتخفون وراءه لتحقيق مآربهم وأهدافهم السياسية، وخدمة مصالحهم الخاصة من أجل الوصول إلى سدة السلطة. ولا يتم ذلك إلا بتضليل الشعب وإيهامه بخدمة المصالح العامة وبضرورة التغيير. فتعمل هذه الأيديولوجيات بتعمية وتعتيم عقول الفئات المستضعفة المقهورة والمغلوبة على أمرها. فلا يكون لهذه الفئة إلا أن تخضع وتؤمن بهذه الأفكار وتتبنها دون وعي منها. وهذا ما أطلق عليه كارل ماركس بالوعي الزائف.

إن الذي دفع بهذه الفئة التعلق بأيديولوجيا الجماعات الإسلامية وبآرائها، طمعهم في تحقيق المساواة ونشر العدالة وتلبية رغباتهم ولا يتأتى ذلك في نظرهم إلا بقيام الدولة الإسلامية ف« هذا زمن الجاهلية وسينتهي عن قريب عند قيام الدولة الإسلامية، ستختفي كل مظاهر الظلم والاستبداد مثلما أوضح لنا الأفغاني، الناس ستكون سواسية كأسنان المشط»^{2 3}.

فالإسلاميون يوهمون غيرهم بأن ما يقومون به له بعد إسلامي يتجاوز الحدود كما أوضح لهم الأفغاني، وهو دال من خلال اسمه على أنه من بين أهم أعضاء وأفراد الجماعة الإسلامية، القادم من أفغانستان لتدريبهم على القتال و الجهاد. بل إن بعض الشيوخ يقومون بعد صلاة الصبح بتحفيز الشباب على القتال، فحشوا رؤوسهم وأقنعوهم بالجهاد في سبيل الله، بالقتل والنسف لدخول

الجنة كما هو الحال في رواية "سيدة المقام" حيث أخذت "مريم" بطلة الرواية تتساءل عن المعننين بالقتل والتصفية. الذين يقاتلونهم باسم الجهاد حينما سألت إحدى صاحبات لباس الجنة - كما يدعين في الرواية- « تقتلون من ؟! قالت أعداء الله! وشكون أعداء الله. قالت الشيوعيون حزب فرنسا، البربر، البعثيون، الملحدون، العقلانيون، اللائيكيون، وأصحاب دعوات تحرير المرأة، نساء جمعيات النسوية، جمعيات العهر والفسوق، والحكام والرعية ومسؤولو أجهزة الإعلام المقروء والمسموعة المرئية... وكل من يحدو حدوهم»²⁴

فهم لم يتركوا أحدا إلا وكفروه. إذ أطلقوا عليهم كل الصفات التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، بل إنهم يخلطون الحابل بالنابل، ولا يفرقون بين الرعية والحكام، والمسؤولين، والنساء والصحفيين... كلهم خونة وعلمانيون وشيوعيون وملحدون.

هذه النظرة السلبية والرؤية الإيديولوجية هي التي طغت على عقولهم وصبغت سلوكياتهم، وميزت مواقفهم السيئة.

أما عن الذين يبقون في هذه البلاد فهم « الأتقياء الخيرون »²⁵ الذين « يحملون بجنة خضراء ينعمون فيها وحدهم بعيدين عن موسكو وهافانا ومن تبعهما »²⁶. لا أحد يحاسبهم أو يلومهم لأنهم مقتنعون بما يقومون به ، بل قد أجاز لهم شيوخمهم وأئمتهم أعمالهم وتخريبهم وقتلهم الأبرياء وبخاصة الصحفيين الذين تستخدمهم على حد تعبيرهم « السلطة الطاغية في الترويج لأكاذيبها الملفقة ضد الجماعات الإسلامية. وحسب فتوى حديثة العهد من أمير الجهاد أجاز الإسلام قتل كل الذين يشتغلون في مؤسسات السلطة، كما يجوز شرعا حرق وتدمير وإتلاف هذه المؤسسات العمومية لإضعاف السلطة تمهيدا لإقامة الدولة الإسلامية»²⁷ بل إن الله يغفر لهم جميع ذنوبهم إذا ما اقتصروا المعاصي والكبائر ويتوب عليهم فهم شعبه المختار، فتقول إحدى الشخصيات المتممة لهذا الاتجاه في

رواية الورم » إن الله رحيم يعرف حق المعرفة بأن نوايانا صادقة وقد سخرنا النفس والنفس لخدمته وإعلاء كلمته. يغفر لنا ولضحاينا...»²⁸.

فكما هو واضح من أقوالهم وأفعالهم سيطرة النظرة الخاطئة للإسلام على أفكارهم وسلوكاتهم وحياتهم، مما يخول لهم تفسير الأمور وتأويلها كما يحلو لهم وبحسب ما يخدم أهواءهم ومصالحهم الخاصة .

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل طالت فتاواهم وأحكامهم ومحاولة فرض أرائهم حتى السجون والمعتقلات في الرواية نفسها، التي سجلت الصراع الأيديولوجي الذي دار بين أحد السجناء، وهو طالب متخرج من الجامعة الإسلامية وأمير جماعة حينما احتد النقاش بينهما في مسائل عدة واختلاف الرأي، ولأن الطالب أبدى رأيه بصراحة وحاول مناقشتهم وإقناعهم، اتهموه بالخروج عن تعاليم الدين الصحيحة، فصدرت في حقه فتوى بجلده حتى يعود إلى "رشد". فهذه الشخصيات إذن شخصيات متطرفة دينيا متعصبة لأرائها، تعمل على إقصاء الآخر وإلغائه لمجرد اختلاف الآراء وتباينها.

الكاتب من خلال عرضه لأحداث الرواية لم يبد رأيه وحاول أن يكون خارج الأحداث، إلا أنه حرص على نقل الوقائع كما هي وجعل الشخصيات تتحرك وتتحدث بطلاقة وحرية كما لو أنها على مسرح الواقع، مما أدى ذلك إلى فضح أيديولوجيات الشخصيات وانتمائها الحزبي، فعرض لنا ميل الأيديولوجيتين إلى استخدام كل الوسائل المتاحة من أجل فرض رؤاها في حالة عدم الاقتناع بما يقولون، كإقامة الحد على معارضيهم. لذلك كان المثقف داخل المعتقلات يتجنب الخوض في المسائل السياسية والدينية ورفض الإفصاح عن انتمائه وحقيقة مواقفه تجاه أية قضية أو أية مسألة بخاصة المسائل الدينية أو ما يتعلق بالسلطة. وهذا ما نصح به الشاعر المعلم "كريم" بطل رواية الورم داخل المعتقل «ذلك أن العقوبة ستنزل عليه مثلما ينزل البرق على شجرة منعزلة»²⁹.

إلى جانب هذا الصراع هناك صراع أيديولوجي آخر حدث بين الدرك كإحدى وسائل السلطة الأيديولوجية وبين أعضاء الحزب الإسلامي المعارضين، بشأن الشعار المثبت في الواجهة الأمامية لدار البلدية، واستبدال شعار "من الشعب وإلى الشعب" إلى شعار "البلدية الإسلامية" بحجة أن هذا الشعار من مخلفات المرحلة الاشتراكية الملحدة وعلى الحزب أن يضع شعارات جديدة تعبر بحق عن أفكاره. كان الشعار القديم مكتوبا بالأحمر فوق مساحة بيضاء، فاختراروا اللون الأخضر كرمز للجنة مقابل الأحمر، والإسلام مقابل الاشتراكية. الإيمان مقابل الإلحاد. فقد عمدوا إلى تغيير الألوان التي تحمل هي الأخرى دلالات أيديولوجية تنم عن انتماءات أصحابها، ولأن اللون الأحمر وذلك الشعار برأيهم إنما هو شعار الشيوعيين، على الرغم أن أحد الدركيين أفهمه أن هذا الشعار شعار يومئ إلى الاستقلال ولا علاقة له بالشيوعية، لكن دون جدوى.

إذا كانت رواية محمد ساري هي رواية أيديولوجية بامتياز ومن أكثر الروايات التي استطاعت أن تبرز الصراع الأيديولوجي من كل جوانبه، وبين اتجاهين سياسيين مختلفين، فإن الطاهر وطار في "الشمعة والدهاليز" يبقى وفيًا لنظريته الأيديولوجية، إذ جاءت روايته « لتؤكد بأن الخط الأيديولوجي للخطاب الروائي لهذا المبدع لم يتغير رغم المدة التي تفصل بين روايته الأولى "اللاز"، وروايته "الشمعة والدهاليز" حيث بقي مشدودا إلى الخطاب الأيديولوجي الماركسي الذي كان يتبناه في بداية مشواره الفني »³⁰ والإبداعي من خلال تداعيات الشاعر بطل الرواية ذو التوجه الماركسي، هذا الشاعر الذي تفضح الرواية انتماءه الأيديولوجي من خلال تأثره بالفكر الماركسي أثناء قراءاته واتصاله بالفكر الماركسي وارتباطه بالاشتراكية بعد تعرفه بصديقه الفرنسي من أصل كورسيكي، ورفضه للأيديولوجيا الإسلامية، فيقول الراوي في ذلك: «امتدت يد الشاب عمار بن ياسر تطلب المصافحة امتثلت يد الشاعر كعادتها يتردد معلنا عنه وكأنما تشعر بلا جدوى هذه الحركة النفاقية»³¹ رفض "الشاعر" المصافحة في بداية الأمر إنما يدل على رفضه

للجبهة المعارضة، وعبر عن ذلك بعدم رغبته في المصافحة، وتقديم نقد للحركة الإسلامية في بداية ظهورها حينما أعلنت رغبته في بناء جمهورية إسلامية وخلافة إسلامية مما أثار استفسار الشاعر عن حقيقة هذه الدولة وما الفرق بين هاتين التسميتين، فأخذ أحد الملتحين يشرح ويفصل في الأمر. والشاعر حينما استفسر عن ذلك كان من أجل معرفة حقيقة هؤلاء والتعرف على هويتهم بدقة وعن غايتهم وطريقة تفكيرهم وفهمهم للواقع .

إن "الطاهر وطار" في رواياته « حمل شخصياته محمولات أيديولوجية ودينية أثرت في المسار العام للروايات وجعلها تسير في اتجاه واحد هو الاتجاه الذي ارتضاه لها الروائي ويتناوب شعور قوي وأنت تقرأ الروايات أنها موجهة بشكل واضح وفاضح ومحملة برسالة معينة، ولذلك ففي كل مقطع هناك الظلال الأيديولوجية مرة والرؤى الخاصة به، ماثلة في كل أجزاء الروايات»^{2 3}.

إذا كانت جل الشخصيات الروائية بخاصة المثقفة منها في النصوص الروائية التسعينية ترفض السلطة صراحة، وتحقر الأيديولوجيتين السياسية والإسلامية، فإن الكثير منها وقع في شرك هذه الأخيرة، وتبنت آراءها ومواقفها، وإن كانت الظروف الصعبة التي مروا بها هي التي قادتهم إلى ذلك في كثير من الأحيان كما هو حال شخصية المعلم "كريم" في "الورم"، و"موسى" و"زعطوط" و"عنتر" في "فتاوى زمن الموت" و"الصحفي الطاهر سمين" في "بخور السراب" كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، هذه الأخيرة التي رفض بطلها الإفصاح عن موقفه، ورفض الخوض في المسائل السياسية ومشاكلها لأن الخوض في مثل هذه الأمور تزيده همّاً على هم ، لذلك أعلن بغضه للعالم والناس، عكس صديقه الذي أقنعه بضرورة اندماجه الاجتماعي، الذي كان يواصل نضاله بنشر مقالاته في جريدة "المشعل" التي كان بطل الرواية الكاتب/السارد يحرص على قراءتها وقراءة جرائد أخرى "الصراط، المستقيم، الأنوار" لكن دون إصدار حكم حول ما كُتب وما يقرأ، فهو كما يقول «

أقرأ دون أن أحاكم، فما كان دوري أن أقول من هو على حق ومن هو على باطل... ولكن أن أصون عقلي من التدليس وقلبي من التخويف وروحي من التوجيه»^{3 3}.

إن الكاتب/السارد حاول أن يبعد نفسه عن كل ما ينغص عيشه ويشوش أفكاره ودخول متاهات لا مخرج منها، على الرغم من محاولة أصدقائه اخراجه من عزلته التي فرضها على نفسه بطمأنته بأن لا يخشى من التبعات لأنهم إلى جانبه. لكنه مقتنع أنه ليس « مؤهلا للمشاركة لهذا التغيير »^{3 4}، وأن ما يحدث لا علاقة له بالسياسة ولا بشيء آخر.

إن وعي الكتاب الجزائريين بما يحدث بالواقع المعيش، ومعايشتهم للأحداث اليومية جعلهم ذلك يقربون المسافة بين نصوصهم الروائية وما يدور في ساحة الحياة اليومية، حيث بدت الروايات متطابقة مع روح الحركة الاجتماعية المملوءة بالتناقضات والصراعات، فجاءت نصوصهم ناطقة بما يحدث في الواقع المعيش، لذلك يمكن اعتبارها نصوصا أيديولوجية أنتجت وفق رؤية أيديولوجية معينة، تنتقد وتقزم التوجهات الإيديولوجية المتضمنة في الرواية، كما أن السارد يقدم تلك المشاهد التي تكشف سلبيات أيديولوجية النظام والأيديولوجيات الأخرى التي تلعب بدورها التسلط على المجتمع دون مراعاة لهويته وخصوصياته، فالنص الروائي عند الكاتب هو مسرح الصراع الأيديولوجي.^{3 5}

لقد عمل الكتاب الجزائريون على نقل الوقائع والأحداث وإخراجها من عالمها الأصلي إلى عالم الفن والإبداع، وعكس وفصح ونقد تناقضات المجتمع وفساد النظام والقيم الأيديولوجية السائدة بشكل مباشر في كثير من الأحيان، مما أوقع الكثير من الروايات بخاصة جيل الشباب في فخ الأيديولوجية البحتة والخطاب السياسي، فشابهها نوع من التقريرية الفجة التي أثرت سلبا على البناء الفني والجمالي للنص الروائي.

3. تيمة العنف وصوره في رواية التسعينيات:

لقد اهتمت كتابات التراث العربي³⁶ بإبراز أشكال العنف والإرهاب، مما يعني أن هذه الظاهرة كان لها امتداد عبر التاريخ العربي الإسلامي، وما يحث الآن في عالمنا المعاصر ما هو إلا تكملة لمسرحية لم تكتمل فصولها بعد، لذلك أبى الكتاب إلا أن يسجلوا وقائع القمع والعنف وتنفشي الظلم والفتن، فجاءت كتاباتهم كرد فعل على موجة الإرهاب، «وشهادة على نظام الحكم الذي نكل بالكتاب والمعارضين والمختلفين»³⁷.

كذلك الأدب الجزائري شأنه في ذلك شأن الآداب الأخرى، ما هو إلا انعكاس للراهن والحيني والظرفي، مما حدث من تغيرات وتحولات على مستوى المجتمع الجزائري، إذ أسهم في ظهور رواية جديدة هي أقرب إلى التسجيلية منها إلى الفنية. والواقع أن فترة التسعينيات تجلت فيها المحنة وفرضت حضورها في الكتابة الروائية بقوة وبشكل لافت للنظر، والأكثر من ذلك تصويرها للمشاهد الإرهابية التي بدت أكثر هيمنة في النص الروائي وقمع السلطة التي نالت حظا وافرا في رواية التسعينيات.

➤ **عنف السلطة :**

تطرح الرواية الجزائرية مسألة العنف وتشير إشارة واضحة وصريحة إلى تسلط السلطة وممارستها القهرية، وظلمها وتعسفها باستخدامها شتى الوسائل التي تمتلكها، وجاء الحديث عنها متفاوتا من نص إلى آخر. بعضها صريح يدينها ويدين أفعالها كما هو الحال في رواية "دم الغزال" لمرزاق بقطاش الذي أعلن صراحة عن بغضه للسلطة والسياسة، على الرغم من أنه كان يشغل منصبا سياسيا، ويصفها باللعنة السياسية فهي تمثل « فن القتل على الرغم من أنها، في جوهرها فن البناء، (فما) الفرق بين الرئيس الذي يذبح شعبا في ظرف ثوان معدودات، ورجل المافيا»³⁸ فالرئيس ورجل المافيا كلاهما قاتل ولا فرق بينهما، فهو لا يرى فيهم الخير أبدا حتى وإن كانت نيات بعضهم حسنة، بل لم

يعد يثق في أي أحد منهم «فالسياسيون يُكرهوننا على إتيان المنكرات من حيث لا ندري يأتون بشيخ³⁹ طاعن في السن يزعمون أنه سينقذ البلد من الجهل والجاهلية، ثم يقتلونه في يوم من الأيام لأنه لم يرض أذواقهم وأطماعهم⁴⁰». إن "مرزاق بقطاش" لم يعرّ السلطة و يكشف حقيقتها فقط، وإنما استطاع أن يبين الخرق الذي أصابها ويكشف عن التناقضات والصراعات الداخلية التي مست السلطة وعرقلة سيرها. وما اغتيال الرئيس الراحل "محمد بوضياف" -كما جاء في الرواية- إلا دليل واضح على انشقاقهم واختلافهم، وعلى أن هناك سلطة أقوى استطاعت أن تتخلص من الذين يعيقون طريقها. لم يعد الكاتب السارد يأمن لنفسه منهم ولا يثق فيهم، لذلك رفض أن يوصف بالسياسي، فهو ليس مثلهم على الرغم من أنه منهم.

إذا كانت رواية "دم الغزال" قد صورت لنا واقع السلطة وحقيقتها أو اضطهادها مما أرهق كاهل الجزائري، فإن رواية الورم قد سجلت لنا أحداث الموت الذي حصد أرواح الكثيرين دون تمييز بين المذنب والبريء، بخاصة المثقف الذي وقع ضحية إيديولوجيتين، ووجد نفسه أسيرا بين نارين. نار السلطة وجحيم الإرهاب، إنها فعلا رواية العنف الأيديولوجي التي تقدم تلك المشاهد التي تكشف عن سلبية الأيديولوجيات المختلفة المبثوثة في المتن الروائي.

لقد كانت السلطة تمارس قهرها وظلمها وتعسفها من خلال وسائلها الأيديولوجية المختلفة، منها رجال الأمن الذين يداهمون الناس ليلا وينفونهم إلى أقاصي الصحراء وإلى أماكن أخرى مجهولة قد لا يعودون منها ولا يعرف لهم أثر. فالكثير من هؤلاء من أخذ دون رجعة، وهذا ما كان يصرح به كريم المعلم "حينما أخذ من بيته ليلا وزج به في معتقل بأقاصي الصحراء « أنا بريء ولكنني قضيت قرابة السنة في السجن. وأي سجن؟ جحيم لا تتمناه لألد أعدائك، وماذا فعلت حتى أعاقب بهذه الطريقة اللاإنسانية؟ لو أحكي لك كيف دخل العسكر بيتنا

ليلاً، وكيف قادوني بعنف همجي بمنامتي فقط... لو أحكي لك تفاصيل الأيام والليالي التي قضيتها تحت خيم تنتقل فيها الحرارة من الصفر إلى الأربعين في ساعات قليلة، لو أحكي لك...»^{1 4}. يبدو أن "كريم" قد عانى الكثير من ويلات السلطة، حتى وإن تجنب ذكر تفاصيل تعذيبه، ولكن القارئ لا يحتاج إلى كثير تمنع فيما ذكره حتى يعرف ما قاساه في سجنه من خلال تكراره لجملة "لو أحكي لك". إن شدة معاناته وتكرار تعذيبه بشتى الوسائل والأنواع جعلته لا يرغب في تذكرها وحكيها، واكتفى بالإشارة والإيماء إلى ذلك.

لم تكن جريمة "كريم" وغيره «سوى التعبير عن رأي مخالف، والمشاركة في انتخابات تعددية»^{2 4}، وليس هذا إلا دليلاً على قمع حرية الرأي في دولة تدعي الحرية والديمقراطية، والكشف عن الأسباب التي أدت بالحكومة إلى إسكات المتهمين إلى الحزب الإسلامي باعتقالهم بخاصة بعد فشل مشروع الانتخابات وأحداث أكتوبر، «تماماً كما فعل النظام الستاليني حينما أبعده المنشقين إلى سيبيريا باسم الدفاع عن الاشتراكية والحرية»^{3 4}.

أما عن فنيات التعذيب التي كانت تمارس في السجون ضد الموقوفين والمعتقلين، والتي إن سكت عنها كريم فإن السارد أبى إلا أن يطلعنا عليها، حتى يكشف لنا مدى الشبه الكبير بين قمع السلطة وبطش السلطات الفرنسية إبان الثورة التحريرية، فالدركي موح لكحل وزملاؤه في تعذيبهم للموقوفين كغيرهم من المستعمرين «ابتداءً من الشتائم المذبذبة المهينة، والدبذبات والركلات مروراً باستخدام العصي والأنايب المطاطية المبللة وصولاً إلى طرق جهنمية مثل ضغط منشفة مبللة بالجافيل والكوزيل على الفم... وأخيراً وضع ملاقط حديدية مكهربة على شحمة الأذنين وحلمتي الصدور...»^{4 4}.

إذا كانت رواية "الورم" مليئة بأحداث العنف والقمع والسجن والتعذيب فإن كل من "واسيني الأعرج" في "سيدة المقام" و"الطاهر وطار" في "الشمعة والدهاليز" عملاً

على التخفيف من حدة العنف الأيديولوجي، وأشار إلى ذلك دون التفصيل في وصف أحداث العنف، على الرغم من أنهما وجها أصابع الاتهام إلى كل من السلطة والجماعات الإسلامية، أو كما وصفهما الأعرج "بني كلبون" وحراس النوايا، فالظاهر وطار عمل على إيهام المتلقي بالتقارب وتلاقي الأيديولوجيتين الممثلتين في شخصية الشاعر ذو التوجه الماركسي وعمار بن ياسر" السلفي، إذ يتهم الكاتب في نهاية الرواية كلا الطرفين، وأطراف أخرى في اغتيال "الشاعر" رغم اختلاف المبررات إلا أن هدفهم كان واحدا -وهو تصفية المثقف- وعلى الرغم من أن القتلة كانوا ملثمين إلا أن مواقفهم وادعاءاتهم وتصريحاتهم فضحت انتماءهم وأيديولوجياتهم.

➤ **عنف الإرهاب:**

لقد سعت الرواية التسعينية إلى تعرية الواقع وكشف ممارسات القمع والعنف بأشكاله، وكشف المؤامرة التي تحاك ضد الوطن، إذ إن حضور العنف فيها كان حضورا طاغيا، يحمل أثار الاستبداد والظلم والتعصب والإرهاب، هذا الأخير الذي كان وقعه «في القلوب والعقول قد يعادل وقع الثورة التحريرية إن لم يفقه... إن ثقله هو الذي يفرض على الكاتب حالة من الحضور يصعب من التنصل منها»^{4 5}.

جاءت الإشارة إلى هذه الظاهرة بشكل صريح في معظم الروايات وإن أطلق البعض عليها تسميات أخرى يستطيع القارئ الكشف عن دلالتها، كما هو الحال عند "واسيني الأعرج" الذي أطلق عليهم تسمية "حراس النوايا"، هؤلاء الذين يسلطون عقابهم على أصحاب النيات الذين ينوون بأنك نويت فيحكمون على الإنسان حسب ما يعتقدون هم لا ما هو كائن وواقع، فمهمتهم المتابعة والمراقبة وقراءة أفكار الغير ومحاسبتهم عليها. فهم عادة «لا يتدخلون بعنف إلا إذا كان الرجل مصحوبا بامرأة، أو يشمون رائحة الأجساد التي تعيش لحظة عنفوان شائقة. من صفاتهم أنهم يقرؤون في عينيك ما تفكر، ولا يهم إن كان صحيحا أو

غير صحيح، المهم أنهم فكروا أنك على خطأ فيجب أن تكون على خطأ من دون ثرثرة، عندما يكفرونك وعادة ما يفعلون، ذلك عندما يختلفون معك، عليك أن تقبل لأن أي نقاش سيقودك إلى تعميق الأزمة «^{4 6}، وهكذا كان مصير أستاذ الفن الكلاسيكي حينما وجدوه يسير وحده ليلاً، فأخذوه بقوة وعنف حتى مزقت ثيابه وأدخلوه شاحنة خاصة بنقل النفايات ورموه بعيداً مع الفضلات »... وجدت نفسي فجأة في شاحنة كبيرة مخصصة لنقل الزباله بين أكياس الفضلات والروائح الكريهة كنت غارقاً في القمامة و العفونة «^{4 7}. هكذا كانت حال المثقف في رواية التسعينيات لا فرق بينه وبين أكياس القمامة وليس له الحق أن يسأل أو يتساءل، لكن عليه أن يكون عبداً مطيعاً حتى لا يقطع رأسه.

على الرغم من أن الكاتب لم يعمد إلى تصوير الأعمال الفظيعة والشنيعه التي كان يقتربها الإرهاب، وما أكثرها، إلا أنه يقف عند أهم المحطات ويترك فرصة الاستشراق على القارئ ليتنبأ الأحداث. فوقف ملياً عند حادثة غلق صالة الباليه ومدرسة الفنون الجميلة، لم تمثله هذه المدرسة بالنسبة للكاتب ومريم من أمل وحياء وتحقيق للذات وراحة البال وطمأنينة النفس، هي المتنفس الوحيد لمثل هؤلاء الذين يبحثون عن الحياة وسط مدينة الموت والخراب، مدينة مليئة بالدم و الصراخ والأنين والعذاب. وما استهداف مدرسة الفنون من طرف "حراس النوايا" بمساعدة "بني كلبون" -على حد تعبير الأعرج- إلا رغبة في قمع الحرية وقتل الحياة. لم يقف هؤلاء عند حد غلق صالة الباليه وتحويلها إلى ملجأ لسكان القصبه. بل قاموا بحرق دار البلدية وما تحويه من أثاث وعتاد في رواية "الورم" بعد الصراع الأيديولوجي العنيف الذي دار بين الإسلامويين ورجال الدرك كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. والذي كانت نهايته سقوط قتلى وجرحى في كلا الطرفين، وبعدها قتل رئيس البلدية من طرف ابن عمه "يزيد" الإرهابي أمام الملاء بعد تهديده بضرورة

التخلي عن المنصب الذي وكل إليه، فهو برأيه يساعد السلطة ويقف إلى جانبها مادام يعمل تحت إمرته

« برودة أعصاب عجيبة أخرج يزيد لحرش محشوشه من تحت جاكيتته، وأطلق رصاصتين على مستوى الصدر، صاح المير صيحة مخنوقة، وسقط أرضا. اقترب يزيد من الجسم الممدد فوق الرصيف، انتظر قليلا ولما لم يتوقف عن الارتعاش والحركة أخرج مسدسا من حزامه، وأطلق رصاصتين أخريين على الرأس...».

إن مثل هذه المشاهد كثيرة في الرواية الجزائرية فترة التسعينيات، وبخاصة رواية "الورم" لمحمد ساري" التي جسدت المشاهد الإرهابية، إذ لم يخل فصل من فصولها من الحديث عن تيمة العنف و عن الإرهاب وقسوتهم، حتى غدت الرواية خطابا سياسيا، اهتمت بالأحداث وأهملت الجوانب الفنية والجمالية فيها. ومن بين هذه المشاهد الإرهابية الأشد قسوة في هذه الرواية تصوير مشهد ذبح الصحفي محمد يوسف والمذيع التلفزيوني بعد أن كفروه وحكموا عليه بالموت، لمجرد أنه يعمل في إحدى مؤسسات الدولة « أمسك الرأس جيدا حتى أتمكن من الذبح. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح. ودون أن ترتعش يده مرر السكين على الرقبة، انفجر الدم بقوة، ارتعش الجسم في حركات حادة متتالية، ارتفع شخير مخنوق، ثم توقف الجسم المذبوح عن الحركة

« 8 4 .

لم تكتف الروايات ببث العنف المادي فقط، بل كثيرا ما كانت تشير إلى العنف الرمزي من تهديدات متواصلة بالقتل الذي ينتج عنه الخوف والهلع، وأيضا السب والشتم وبذاءة اللسان كما حدث لأستاذ الفن الكلاسيكي في "سيدة المقام" إضافة إلى تدهور الحالة النفسية للشخصيات الروائية المثقفة مما أدى بها إلى «الانغلاق على النفس والتواطؤ مع الصمت والخضوع للخوف... الخوف من الاغتيالات المبرمجة والعشوائية، الخوف من الاعتقالات، الخوف من المداهمات المستمرة على البيوت بحق وبغير حق، الخوف من الخوف نفسه»^{9 4}

إن الحديث عن العنف في رواية التسعينيات الجزائرية لا ينتهي، لأنه من أبرز المظاهر التي ميزتها من حيث إنها استطاعت أن تقدم تلك المشاهد التي تكشف سلبية الإيديولوجيتين، وتعكس من خلال شخصياتها المشهد السياسي المجسد في الخطاب

الروائي، فانتشار العنف في المجتمع الجزائري من الأسباب التي جعلت الأدب الجزائري وبخاصة الرواية تتجه هذا الاتجاه وتعكس الأحداث المأساوية التي سجلت حضورها بكل قوة وصدق في المتن الروائي .

لقد ألفينا رواية التسعينيات الجزائرية من خلال أبرز تيماتنا تجسيدا للواقع إذا تميزت بقدرتها على نقل رؤية الكتّاب للواقع والمجتمع وعكست تصوراتهم وأيديولوجيتهم عبر خطاب شخصياتهم الروائية. التي كشفت عن نظرتها وموقفها من الواقع المأساوي المرير، كما جسدت الصراع الذي بلغ أشده بين تيارين متناقضين حاول كل منهما فرض سيطرته كقوة لا تقهر. كما قدمت لنا الروايات من جهة أخرى أنموذجا للشخصية التي يفترض أنها واعية قد حطمت سمة الشخصية المثقفة بانضمامها إلى جماعة عملت على نشر مبادئها لتغليب المجتمع وإيهامه بصدق دعوتها باستعمالها الدين وسيلة أساسية للحكم على خصومها بالكفر والالحاد، ليتم تسييس الدين وأدلجته وتفسيره حسب ما يخدم مصالحهم، لتفضح الرواية بذلك براغماتية هذه الأيديولوجيا ونفعيتها وتكشف عن أيديولوجيا الرواية الرافضة والمناضلة والمناهضة لها ولأعمال العنف ومشاهد القتل والدمار والتي تعبر في الآن نفسه عن أيديولوجيا الكاتب في حد ذاته.

الإحالات:

- ¹ - فلاديمير ماكسيمنكو: الأنتلجانشيا المغاربية / *المثقفون أفكار ونزاعات*، ترجمة، عبد العزيز بوباكير، دار الحكمة، الجزائر، ط1، 1984، ص 8.
- ² مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر *دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية*، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 87.
- ³ محمد ساري: الورم، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2002، ص 35.
- ⁴ صالح ولعة: صورة المثقف في روايات عبد الرحمن منيف، مجلة الموقف الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 386، حزيران، 2003. ص 05.
- ⁵ السليبي واللامتيمي يتشابهان في كونهما بلا قيم، وقد يكتفي اللامتيمي بالوقوف على الحياء، بينما يقع السليبي في مستنقع القذارة، وينغمس في حياة الغاب تقوده أنانيته إلى الفتك بالآخرين والصعود على جثث الأبرياء، وهو بطل العصر الصاعد من رحم الطبقات الفقيرة التي لا تملك غير بؤسها، والذي يرغب في الوصول السريع، ينظر محمد عزام: البطل الإشكالي، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، ص 12.
- ⁶ بشير مفتي: بحور السراب، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2004، ط1، ص 70.
- ⁷ صالح ولعة: صورة المثقف في روايات عبد الرحمن منيف، ص 07.
- ⁸ إبراهيم سعدي: فتاوى زمن الموت، منشورات التبيين الجاحظية، سلسلة الإبداع الفني، الجزائر، 1999، ص 70.
- ⁹ نفسه، ص 76.
- ¹⁰ محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 123.
- ¹¹ بشير مفتي: بحور السراب، ص 71.
- ¹² نفسه، ص 34.
- ¹³ مرزاق بقطاش: براري الموت دم الغزال، الفضاء الحر، الجزائر، 2007، ص 194.
- ¹⁴ مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص 89.
- ¹⁵ Conscious, the theory and practice of self metanfiction, : patritia wanhg fiction mathuen ,london, 1984,p13.

- ¹⁶ آمنة بلعلی: المتخیل فی الروایة الجزائریة من المتخیل إلی المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزیع، تیزی وزو، (د، ط)، 2006، ص 157 .
- ¹⁷ عبد الملك أشبهون: الحساسية الجديدة فی الروایة العربیة *روایات ادوارد سعید نموذجاً*، منشورات الاختلاف، الرباط، ط 1، 2010، ص 195 .
- ¹⁸ مرزاق بقطاش: دم الغزال، ص 84 .
- ¹⁹ مرزاق بقطاش: دم الغزال، ص 302 .
- ²⁰ كمال الرياحي: المیتا سرد فی رواية خشخاش لسمیحة خریس .
- ²¹ http://www.diwanalarab.com/spip.php?article1163 تاريخ النشر: 03-08-2007، تاريخ الزیارة، 30-05-2011،
- ²² بشیر مفتی: بخور السراب، ص 84 .
- ²³ إبراهيم سعدي: فتاوى زمن الموت، ص 74 .
- ²⁴ محمد ساري: الورم، ص 249 .
- ²⁵ واسيني الأعرج: سيدة المقام، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، ط 1997، ص 231 .
- ²⁶ واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص 23 .
- ²⁷ عامر مخلوف: أثر الإرهاب فی الكتابة الروائیة، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مج 28، ع 1، الكويت، سبتمبر 1999، ص 304 .
- ²⁸ محمد ساري: الورم، ص 147 .
- ²⁹ نفسه: الصفحة نفسها .
- ³⁰ محمد ساري: الورم، ص 21 .
- ³¹ وذناني بوداود: الثابت الأیدیولوجي فی الكتابة الروائیة الأدبی والأیدیولوجي فی رواية *التسعينيات روايات الطاهر وطار وواسيني الأعرج نموذجاً*، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي فی الجزائر، المركز الجامعي سعيده، 2008، ص 154 .
- ³² الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز، موفم للنشر والتوزیع، الجزائر، 2004، ص 25 .
- ³³ محمد صالح خرفي: الديني والأیدیولوجي فی الرواية الجزائریة المعاصرة، *الأدبي والأیدیولوجي فی رواية التسعينيات*، ملتقى سعيده الخامس، ص 122
- ³⁴ بشیر مفتی: بخور السراب، ص 69 .

³⁴ نفسه، ص 70 .

³⁵ ينظر وذناني بوداود: الثابت الأيديولوجي في الكتابة الروائية عند الطاهر وطار، الأدبي والأيديولوجي في رواية التسعينيات، ملتقى سعيدة الخامس، ص 157 .

³⁶ أمثال أبو عبد الله نعيم بن حماد المزروي في مؤلفه "كتاب الفتن" ومحمد ابن أحمد التميمي صاحب كتاب "الحن"، وابن كثير في كتاب له بعنوان "النهاية في الفتن والملاحم". ينظر: شارف مزارى: أدب المحنة في الرواية الجزائرية المعاصرة، الأدبي والأيديولوجي في رواية التسعينيات، ملتقى سعيدة، ص 83 .

³⁷ نفسه، الصفحة نفسها.

³⁸ مرزاق بقطاش: دم الغزال، ص 194 .

³⁹ يعني بالشيخ الرئيس الراحل محمد بوضياف .

⁴⁰ مرزاق بقطاش: دم الغزال، ص 186 .

⁴¹ محمد ساري: الورم، ص 54 .

⁴² نفسه، ص 152 .

⁴³ نفسه، الصفحة نفسها.

⁴⁴ نفسه، ص 132 .

⁴⁵ مخلوف عامر: الإرهاب في الكتابة الروائية، ص 304 .

⁴⁶ واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص 220 .

⁴⁷ واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص 266.

⁴⁸ محمد ساري: الورم، ص 181 .

⁴⁹ بشير مفتي: بخور السراب، ص 81 ..

